جيران الخزر

في عام ١٩٦٠ أثناء الطريق الاستطلاعي في دلتا الفولغا انشدَّ انتباهنا إلى تل ستيبان رازين في إقليم زيلنغينسكي. حيث عُثِرَ في قمة التل على فخار وقبور منذ العهد الخزري، وأجرت البعثة المنظمة في عام ١٩٦١م استطلاعاً تفصيلياً دقيقاً للقبور مع تنظيف (إظهار) بعض الأقسام المنفردة وبدا هذا «ليس خطوة في حينها وإنما متأخرة» لأن السكان المحليين كانوا طوال الوقت هذا يفتشون عن الكنوز المدفونة بناءً على قصص س. رازين وذاك يأخذ الغضار والعظام معاً لمصنع الآجر وغيرهما ينبش عن العظام ويسلمها كنفايات، وبهذا الشكل دمر القسم الأكبر من القبور إلا أن بقيتها التي اكتشفناها فاقت كل التوقعات.

تل ستيبان رازين:

هو واحد من تلال بائيرو الكثيرة العدد في دلتا الفولغا، والارتفاع المطلق لقمته هو ناقص ٤.٦م أما سفحه فناقص ٢٠م. ومنسوب الماء الحالي في النهار بالقرب من الرازين هو ناقص ٢٤م وبالتالي بالكاد غسلت أمواج البحر التل في عهد طغيان بحر قزوين في القرون ٨-١٤م ولكن كل ذلك جعل منه جزيرة لأن العمق من حوله بلغ ٤-٥م. ومقابل هذا في فترة الاستواء المنخفض لبحر قزوين وهذا يعني في الألف الأولى للميلاد كان السهل في شرقي الدلتا مغطى بنباتات المروج الرائعة، والرحل لم يمنعهم أي شيء من الاستفادة منها. للتشتية (قضاء الشتاء) وعلى أساس هذه الأحكام كان يحق لنا أن نستنتج أن القبور في التل تؤرخ بوقت ليس أكثر تأخراً من القرن ١٢م وهذا ما تأكد أثناء سير الأعمال.

وقد شوه الزمن والناس بشدة حدود شكل التل، فالقسم الشرقي منه اقتطع أثناء الحصول على الغضار لمصنع الآجر وانهالت الجهات الأخرى، قمة التل فقط بقيت على الشكل الأول للهضبة التي تنمو عليها بعض أجمات النباتات الشوكية النادرة كأديم الأرض النمطي لشبه الصحراء والطبقة الدبالية معدومة وحل محلها غبار الغضار الرملي الذي تليه طبقة جافة كثيفة جداً من الغضار

الرملي بسماكة حتى ٢٠سم تزيد وتنقص أحياناً وتحتها الأرض الأصلية من الغضار الطري.

وجميع اللقى مرتبطة بالطبقة الرمادية القاسية: وحتى عندما تكون اللقى في الطبقة الأصلية فإن حدودها العليا تلامس منسوب الطبقة القاسية وأظهرت سلسلة من عمليات التنظيف أن أرضية التل تتكون من الغضار الرملي القاريّ الخالي من بقايا العظام أو الفخار وجميع اللقى اكتشفت في القسم العلوي من النصف الجنوبي للتل.

وكشفت أعمال عامي ١٩٦٠-١٩٦١م عن عشرين قبراً منها: ٤ محروقة الجثة اعتبرناها تيوركية و ٤ مجزأة الهيكل العظمي ومدفونة بوضعية الجلوس وفي حالتين منها مترافقتين بامرأتين مدفونتين بفقرات رقبية مفككة، ونسبنا هذه القبور إلى التيليتسيين و ٥ قبور اعتبرناها خزرية و ٣ كازاخية من القرن ١٩م وقبر واحد له بطانة وواحد مع حصان.

إحدى اللقى في خازاريا

ونتوقف عند قبرين نقبت عنهما البعثة الخزرية في عام ١٩٦١م وهما مشابهان للقبور التي اكتشفت بعيداً خارج حدود دلتا الفولغا.

وأعير اهتمام خاص للهيكل العظمي نفسه الموجود في القسم الشرقي من المقبرة القديمة. فهو موجه إلى الشرق - شمال شرق بسمت (٧٥ْ) وراقد على الظهر، واليدان ممدودتان على طول الجسم والقدمان مفقودتان وبقايا العظام المقطوعة غير موجودة أيضاً. وكان الهيكل مطموراً بتربة هشة رطبة ومثل هذه الدرجة من تماسك التربة تكون ممكنة فقط عند الملء البطيء للبطانة. وفي الواقع كانت البطانة في محيط حفرة القبر الواقع في القسم الشمالي الغربي من الحفريات موجودة مقابل الرجل اليمنى للهيكل العظمي في الجهة الجنوبية الغربية. ومن ناحية رأس الهيكل العظمي يرقد كالعادة عصعص خروف وعلى يمين الرأس وحتى الفخذ - لجام حديدي بحالة سيئة جداً، ووسادة السرج من الجلد المصفح برقائق عظمية، وسيف ضالع ذو قبضة بزاوية بالنسبة للنصل في غمد خشبي أصفر اللون وركاب دائري حديدي وعلى الخصر سكين ذات قبضة خشبية.

والقبور المبطنة ما عدا المغولية القديمة والسرماثية التي أشار إليها ك. س. سميرنوف في التلال السفحية في داغستان يعود تاريخها للعهد الخزري.

والقبور التي اكتشفناها يمكن إرجاعها بحسب اتجاه الدفن والموجودات الباقية - إلى هذه المجموعة من الآثار الواسعة الظهور في شمال القفقاس فشكل الركابات والقبضات المائلة للسيوف تحمل على اعتبار القبور التي نقبناها مبكراً في حدود التأريخات المسلم بها لجميع الحضارات وهذا يعني إرجاعها إلى القرنين ٧-٨م.

فالركاب الحديدي ظهر في آسيا في القرن ٥م «الشكل المستدير مع توسعة لتلائم الأحذية اللينة التي انتعلها الأتراك في القرون ٦-٨م» ومثل تلك الركابات كانت منتشرة في القرن ٧م من آسيا المركزية حتى هنغاريا وهي تختلف بشدة عن الركابات السالتوفية ذات المسند (الموطأ - المترجم) المستقيم الملائمة للأحذية ذات النعال القاسية وعلى نحو مماثل أيضاً يعتبر السيف الضئيل الانحناء مع القبضة المثنية الشكل الانتقالي من السيف المِغْوَل إلى السيف الضالع ويؤرخ بالعهد الذي ساد فيه الأتراك بالشرق والخزر بالغرب.

والسرج من دون الهيكل الخشبي كان حتى القرن ٧م غير كامل للغاية.

واستطاع الرحل في القرن السابع الميلادي أن يصنعوا سروجاً دامت أشكالها حتى القرن العشرين. وهذا السبب حمل على الافتراض بأننا نتعامل هنا مع الفارس لا مع الرحلي وعلى هذا الأساس اتفقنا مع م. إ. ارتامونوف ونسبنا هذه المجموعة من الآثار المتشابهة إلى البارسيلليين المعاصرين وأقرب الأقرباء للخزر.

وأول من ذكر البارسيلليين هو ثيوفيل السميساطي كإحدى قبائل شمال القفقاس التي تعرضت لاعتداء الآفاريين وفي «الجغرافيا الأرمنية» التي حصرتهم «في جزيرة» في دلتا الفولغا حيث تواروا عن الخزر وبحسب المعلومات المبكرة البارسيلليون والخزر شعبان مختلفان، وبحسب رأي مؤلفي القرن العاشر الميلادي قبائل من أقرب الأقرباء. وتدل لقانا على أن طقوس الدفن عند البارسيلليين والخزريين مختلفة. وهذا السبب يسمح بالإدلاء بالرأي إلى جانب المصادر المبكرة.

وفي هذا الصدد من الملائم الحصول على المعلومات من مؤلفات القرن ٨م الجغرافية الشرقية التي ما زالت حتى الآن خارج مجال نظر مؤرخي جنوب شرق أوروبا.

وعندنا وثيقتان: صيغة مترجمة من قبل ليو - ماو - تسي وأخرى تيبتية مترجمة ومطبوعة من قبل ج. باكو ومشروحة من قبل ج - كلوسون. يقدم في الأولى تعداداً للقبائل التي يعتبرها جغرافيو القرن ٨م الصيني أحفاداً للهون وينزل منهم على ضفاف نهر آ - دي (غيتيل) الـ خو - ديي (؟!) وخو - تسي (الخزر) وبو - خو (البارسيل) والـ ب - تسن (البتشينيغ)... وسو - با (السابير) والـ يي - في (؟!) والـ غو - تي (الغوث) وغيرهم. والذي يهمنا هم الـ بو - خو غير البلغار لأن الأخيرين معدودون أدناه على حدة في مجموعة الشعوب التي عاشت «شرقَ فولين» (بيزنطة) وسموا «بائي - دجو» (البلغار) والـ إن - غو (الأونوغور) ويتحدد تجانس الأخيرين بواسطة تمركزهم في مجموعة واحدة مع الـ آ - لان (الآلانيين) والهون البيض (الفينام) وفي الوثيقة التيبتية[١] عندنا وصف لبلاد الأتراك بوغ - تشور[٢] الذين يدخل في قوامهم اثنتا عشرة قبيلة تخضع لخان الأتراك.

١- المخطوطة الجغرافية التيبتية من خزانه بيلو رقم ١٢٨٣ مكونة من خمسة تقارير لسفراء الملك خور (ملك التوغون) وتحتوي على وصف «الممالك والقبائل الساكنة إلى الشمال». وأبرز ج. كلوسون التقارير جيداً انطلاقاً من خصائص تقديم المواد في النص ويهمنا التقرير الأول الذي يحتوي على معلومات تعتبر تاريخية في القرن ٨م وتتعلق بالنصف الأول من القرن ٧م وهذا يعني عهد الخاقانية الأولى التي يذكر فيها تعداد القبائل ووصف الموقف التاريخي.

٢- في نص «Bug-Chor de Drugu» يعتبر ج. كلوسون أن فيه تصويراً للقب خان الكاباغان بيوغيو - تشور وهذا يعني موتشجو مشيراً إلى غموضه وتعقيده لأن التبتيين اتخذوا هذا الاسم بالذات لتسمية البلاد بكاملها. والافتراض بأن التبتيين تعرفوا إلى التيورك في زمن هذا الخان يسقط لأن أول لقاء معهم حصل في عام ٦٠٤م وانتهى بمأساة إلى التيورك. وفي هذا الصدد من الخطأ مقارنة خاقان زا - ما - مو - نان مع اوزميش - خان (٧٤٢-٧٤٤م) لأن الأخير لم يقم بحملات إلى الشمال، والاويغور لم يعترفوا بلقب الخان وسموه ببساطة اوزميش - تيفين (اثر مويون - تشورو). ولنحاول بطريقة أخرى - الطرف الأول من اسم الخاقان زا - ما - يمكن أن يكون صفة «آز - ما» بمعنى لا يضل الطريق؟ لايتيه (في الصحراء) والثاني «مو - نغان» يتطابق حسب أفكار بيلو مع المؤسس الحقيقي لأول خاقانية مو - غان - خان ويتأكد الأخير من قوام القبائل الخاضعة له (انظر أدناه) وتوضعها الجغرافي الذي يتطابق مع الحدود الغربية للخاقانية الأولى إذن بوغ - تشور - ببساطة اسم تلك البلاد التي وجدت عليها وفي الحقيقة معبر عنها في ألقاب الخانات التيوركيوتيين («بوغ» - Bog) هذا باغا (بالصينية مو - خو) - إلهي - رباني - فذ - فريد - عظيم و تشور - تشول (بالتيوركية) أو تشولو

ومن تحليل أسماء القبائل المذكورة وتوضعها الجغرافي يمكن ليس فقط تحديد العصر المصور في الوصف وإنما الحصول على معلومات أيضاً لموضوعنا، وسأورد القائمة كاملة:

١) قبيلة الملك زاما مونان (آزما موغانيا) - قبيلة آشين.

٢) هالي Hali - فولي تشويه صيني لاسم الحراس الشخصيين للخانات الأتراك - بوري (ذئاب).

٣) أ - غا - ستي - آشيدي، الثاني في وجاهة قبيلة الأتراك.

٤) كار - دو - لي car-du-li تتكون من شعب «سير» والتعريف النوعي الختامي المتعلق بجميع مجموعات السكان المذكورة هو - توليس تسمية الجناح الشرقي للايلخانية (الدولة) التركية. وبما أنه معروف عندنا أن السيريين (سي - يانتو) عاشوا في بداية القرن السابع الميلادي في جنغاريا مشكلين بالتالي الجناح الشرقي وانتموا إلى الخاقانية الغربية، وبالأخص أن جميع التسميات المعدودة هي تركية حقيقة ويجب أن ينتموا إلى الأتراك الغربيين، وتعداد القبائل التالي يبدأ من الغرب إلى الشرق.

٥) الـ لو - لاد lo-lad - الآلان مع لاحقة الجمع المنغولية وذلك بديهياً لأن كاتب التقرير هو توغوني الأصل وهذا يعني سيان - بيتش.

٦) الـ بار - سيل par-sil.

٧) رني - كي rni-ke اسم قبيلة تيوركية عاشت إلى الغرب من تابارغاتيا معبر عنه بلقب «نيفيو».

٨) سوني soni قبيلة تيوركية في جنغاريا الغربية.

٩) جول - تو jol-to لا يوجد مثل هذه التسمية ولكن يمكن الافتراض أن هذا هو التعريف النوعي الختامي للقائمة «تاردوش»تسمية الجناح الغربي للايلخانية (الدولة) التركية.

١٠) إيان - تي ian-ti - يانتو (؟) قبيلة تيليسية اتحدت بوقت غير معروف مع السيريين وشكلوا قبيلة السيانتو ثم تأت قبيلتان من آسيا الوسطى.

١١) هي - بدل He-bd ɬə- الافتاليون، دخلت في الخاقانية نحو سنة ٦٢٦م.

١٢) جار - رغا - بور Gar-Rga-pur تسمية يجب التحدث عنها في عمل خاص.

إن ترتيب مجموعة القبائل يدلان على أن مؤلف التقرير قد وصف الخاقانية الغربية التيوركية في نهاية عشرينيات القرن السابع الميلادي لأن الاقتران السابق للقبائل واللاحق كانا مختلفين. وليس من قبيل المصادفة أن الخزر غير مذكورين هنا. ففي نبذة أخرى من تلك الوثيقة نفسها تصف الموقف في السهب بعد عام ٧٤٧م تضع إلى الغرب من الاويغور قبيلتين (تتحدران من السوباك: غارا - غو

(بالمغولية) الصحراء الصخرية وبالتركيب يمكن أن تترجم «السهب التيوركي العظيم» أو «صحراء التيورك الإلهية».

- سو وغيزير - غوسو» التي فك رموزها ج. كلوسون بنجاح بالشكل التالي: كارا - غُزّ وقيزيل - غُزّ وهذا يعني الغُزّ السود والحمر «ولكن - يشير كلوسون - إذا اعتبرت صفة «كارا» مشتركة لتسمية القبائل التركية فإنه لم يسمع أبداً عن القبائل «الحمر» ولكن «القيزيل - غو - سو» - الخزر في ذلك الوقت عرف عنهم المخبر الأويغوري جغرافي القرن الثامن الميلادي التيبتي سماعاً فقط»[1] لأن الزيغان بسبب بعد المسافة منعه من أن يتناول هذه القضية بوضوح إلا أننا فعلنا هذا بسهولة كبيرة للغاية.

ومن مقارنة المصادر الغربية بالشرقية والمعطيات الأثرية أصبح مما لا شك فيه أن البارسيل والخزر هما شعبان مختلفان عاشا منذ القرن ٥م على أرض واحدة بعداءٍ في بادئ الأمر ثم في وفاق وفي النهاية قبيل القرن ١٠م توحدا في شعب واحد مما أعطى سبباً لمؤلفي القرون إلى الميل إلى تجديد مطابقة أسلافهم. وهذه النتيجة تؤكد مجمل حركة تاريخ شعوب شمال القزوين.

ولنحو ١٠٠ عام من منتصف القرن ٤م إلى عام ٤٦٣م كان هذا الإقليم ملكاً للهونيين (وعلى ما يبدو أنهم كانوا اكاتسير) الذين اختلطوا بشدة مع السكان السرماثيين المحليين وفي عام ٤٦٣م ضعف الهون بعد هزيمتهم عند نيداو وصاروا ضحية للساراغور والأوروغوف والاونوغور الذين قبضوا على زمام السيادة على شمال القفقاس واحتفظوا بها حتى عام ٥٥٨م وهذا يعني حتى هجوم الآفار. وينسب م. إ. ارتامونوف البارسيل إلى عداد القبائل البلغارية القديمة وبالتالي ظهروا أعداء للسكان الهونيين - السرماثيين المختلطين - الخزر إلا أن الخزر لم يكفوا عن الصراع لما جاء الأتراك في نهاية القرن ٦م إلى شمال القفقاس، إلا أنهم حازوا بشخص الخزر على أنصار مخلصين والخزر بمساعدة الأتراك تغلبوا على البارسيليين الذين منذ ذلك الوقت توقفوا عن الظهور في التاريخ كشعب مستقل.

إن إعادة ترتيبنا للأحداث اختلف بشدة عن وجهة النظر القديمة التي تلحق تسمية القبائل البلغارية باللاحقة «غور» في أسمائهم إلى الاويغور لا إلى الأوغور، وهذا التصور وجد له تجسيداً في مقالة ج. هاملتون الذي فهم من رشيد الدين حتى اشتقاقه كلمة «أويغور» - الحليف.

استنتاج ج. هاملتون الذي صاغه هو نفسه هكذا «الـ ٤٠٠ سنة المتأخرة من اتحاد قبائل الـ تيلي أوتيغرغ تحت اسم أون - أويغور عنى على الأرجح «الحلفاء العشرة» قد صار معروفاً. وفي القرن الخامس الميلادي ارتحل بسبب الاضطرابات في آسيا الوسطى قسم من الـ أون - أويغور إلى السهب شمالي بحر أورال وإلى شمال القفقاس ومن بين القبائل التي ارتحلت يمكن تمييز الأكازيروف

١- في القرن ١٠م بفضل نشاط التجار الراهدونيت اليهود الذين بقيامهم بالارتباط التجاري المنتظم بين الصين وبروفانس (مقاطعة فرنسية - المترجم) لم يعرفوا في الصين بوجود الخزر بل في خازاريا نفسها صارت حتى اللغة الصينية معروفة أيضاً.

أو الخزر (الأكاتسير) وساريغ - أويغور (السارغور) والبلغار والأوتورغوروف مع الكوتورغور والاون - اوتوندوروف والاباروف والاشغيلي/ إيزغيلي (؟!) وفي القرنين ٧-٨م تحركت قبيلة الاويغور الغربية إلى أوروبا ومنذ ذلك الوقت فقدوا التشابه مع الاويغور الآسيويين وهيئتهم التيوركية الشرقية. وفي العهد التالي بعد سحق الاويغور في القرن التاسع زُحِمَ قسم من الـ توكوز - أوغوز (الأويغور) إلى وراء الحدود الغربية واستقر حول بحر أورال وتحول هذا التجميع المنقطع عن الوطن والداخل في الإسلام إلى «الأوغوزوف، والغوزوف والاوزوف» ومن هناك انتشر في أوروبا وآسيا الصغرى».

إن هذا التصور المتناسق فيه قصور واحد فهو يأتي مخالفاً لكل الحقائق الدقيقة المثبتة وكذلك لكل اللقى الأثرية الجديدة.

لنختبر آراء ج. هاملتون بالترتيب. إن جنس «التيلي» لا يجوز إطلاقاً اعتباره «تيفريغ» لأن تسمية «تيلي» مع لاحقة الجمع المنغولية تيليوت بقيت حتى وقتنا الحالي (أيامنا) في ألطاي. وإلصاق تسمية أون - أويغور أو «الحلفاء العشرة» بأسلاف الاويغور غير صحيح لأنهم كانوا اثنتا عشرة قبيلة وكلمة «أويغور» لا تعني «حليف» على الإطلاق واشتقاق رشيد الدين بلطيف القول فات أوانه (بطل استعماله - المترجم) وترحل القبائل البلغارية في القرن الخامس الميلادي ليس له أي علاقة بأسلاف الاويغور لأن البلغار تحت ضغط السابيروف جاؤوا إلى أوروبا في عام ٤٦٣م أما القبائل التيليسية من منغوليا نزحوا إلى السفوح الغربية لتابارغاتي في عام ٤٩٢م وعلاوة على ذلك إن طقس الدفن البارسيللي في القبور المبطنة والتيلي في حفر غير مطمورة ليس بينهما أي شيء مشترك. ومقارنة الخزر بالاكاتسير فإن ج. هاملتون يناقض نفسه بنفسه لأن الاكاتسير صاروا ضحية البلغار المهاجمين من الشرق وبالتالي إحلال الخزر في عداد الغرباء لا يجوز حتى من موقفه هو، ثم أن الخزر استوطنوا في الوديان النهرية غير الصالحة للترحل وطقسهم بالدفن هو حرق الجثة على التلال - كذلك يختلف بشدة عن الطقس التيليسي. ومن غير الواضح لماذا أدخل ج. هاملتون الاباروف في عداد القبائل البلغارية أو حتى الآفار المنحولين الذين وصلوا إلى مناطق البحر الأسود في عام ٥٥٨م وهذا

بعد ١٠٠ عام وفقدان «الهيئة - السحنة - التيوركية الشرقية» ولو حدث ذلك فإنه يجب أن يكون جذرياً حتى تغير الدليل الجمجمي وجميع الملامح الأنثروبيولوجية المميزة للمغول[١].

وانتقال قسم من الاويغور إلى الغرب إلى بحر أورال في النصف الثاني من القرن التاسع يعتبر بكل بساطة مستحيلاً لأن المعابر عبر تابارغاتاي والساور في ذلك الوقت كانت بأيدي الكارلوكوف وليس هناك أيّ أخبار عن هزيمة هؤلاء الأخيرين لا في المصادر الصينية ولا في الإيرانية والغُزّ في سهوب كازخستان الغربية مذكورون أيضاً في وثيقة القرن الثامن التبتية. وعلاوة على ذلك إنهم لا يشبهون الاويغوريين لا بالشكل الأنثروبيولوجي ولا باللغة، وفي النهاية كانت هذه السهوب في القرنين ٨-٩ محتلة من قبل البتشينيغ الذين ظلوا على الدوام مختفين (غائبين) عن نظر ج. هاملتون. ولكن أليست قضية البتشينيغ حتى انتقالهم إلى منطقة الدنيبر تعتبر حجر الزاوية في تاريخ شرقي القزوين والحدود الشرقية لخازاريا، وحتى الاويغور في ذلك العهد لم يبق لهم مكان عند القزوين.

إن تحليل وجهات نظر ج. هاملتون أعير اهتماماً كبيراً للغاية وذلك لكي يظهر أنه بتجاهل الأعمال الوجدانية السوفييتية باللغة الروسية قد صار الآن من المستحيل القول ليس فقط بأنه ما من شيء جديد وإنما ببساطة حتى شيء صحيح. ولإثبات هذا نعود إلى المادة الأثرية.

إن القبر الثاني - للعجوز المغولي مع الحصان - المكتشف في القسم الجنوبي من المقبرة وهو بحالة سيئة جداً حيث: وصل الاهتراء إلى أصول العظام، والحديد تفتت بتأثير الصدأ وبلي الجلد والخشب والقماش،

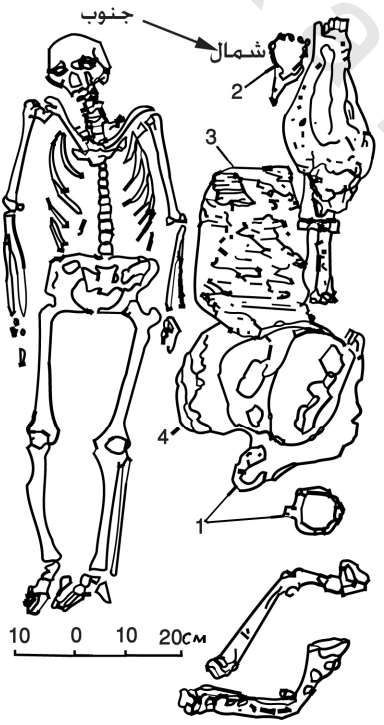

تل ستيبان رازين. تنقيبات عام ١٩٦١ م

قبر رجل بارسيللي: ١- ركاب. ٢- اللجام ٣- بقايا التشبراك ٤- بقايا السرج الجلدي.

١- قبائل الهون البيض «White Huns أو Hionity» أحفاد السرماثيون فارسيّي اللغة، حاصروا مدينة آمد أما صفاتهم الشكلية فهي أقرب إلى الصفات الأوروبية روما، وقد شكلوا الجزء الأكبر من الآفار غير ال الصفات الأوروبية موجودة لدى ٨٠% من رفاة الآ

إلا أنه تيسر تثبيتها جميعها في موضعها الأصلي Insitu واستخرجت منها بعض القطع ليس إلا.

وبقي من الحصان الرأس مع اللجام الحديدي من دون الثنايا والأرجل الأربعة بلا ترتيب، وبالتالي يجب التفكير بأنه كان فريسة لوليمة تأبين بغض النظر عن أن الحصان كان هرماً (١٥ سنة). والسرج خشبي بقربوس أمامي عالٍ ومغلف بجلد أسود وتحته حلس من اللباد وكل منها بالٍ تقريباً ولكن بقيت طبقة ملونة من الغضار الرملي وشرائط ميكروسكوبية (دقيقة) مجزأة من الجلد والركابات الحديدية الدائرية والقوائش العريضة والحياصات مع الشارات والأنواط (باقٍ منها بقايا وأصبغة)[١].

والهيكل العظمي راقد على الظهر وموجه إلى الغرب واليدان والرجلان ممدودتان والفك الأسفل بدا مفصولاً عن الجمجمة وموضوعاً فوق عظام الحوض على عمق ٣١سم بينما الهيكل كله يرقد على عمق ٥٣سم والأسنان منخورة جداً: باقٍ منها في الفك الأسفل فقط الأربعة الأمامية أما في العلوي فهي غير موجودة يعني مثيلاتها بالضبط وتحمل الرجل اليمنى للمتوفى آثار كسر ملتحم ومن الأشياء المكتشفة عظام خروف من ناحية الرأس وقطع من اللباس - قماش أصفر وأخضر سالمة تحت الهيكل العظمي. وهذا بتشينيغي نموذجي مشابه لرحل مدفونين بالقرب من ساركيل.

وهذه المقبرة القديمة مهمة للغاية للتاريخ لأنه لا يوجد فيها قبور للغُزّ الذين هم الشعب الرحلي الوحيد في السهب العظيم الذي حافظ على استقلاله عن خانات سلالة آشين. وكان الغُزّ في القرن التاسع الميلادي يعتبرون حلفاء للخزر ضد البتشينيغ العائشين بين الفولغا والأورال. ولكن جميع قبور الرحل في تل ستيبان رازين تعود إلى عهد الخاقانية أي في الوقت الذي كان فيه الغُزّ أعداء للأتراك أنفسهم وحلفائهم الخزر.

ومتأخراً في عام ٩٦٥م استولى الغُزّ والروس معاً على خازاريا. وفي كثير من تلال الدلتا المركزية تصادف قطع من الفخار الغليظ الطري المصنوع من

١- السروج المشابهة كانت عند التيورك في القرن ٧م.

الغضار الأسود بسطوح بنية من الشي الضعيف مشابهة للكوريكانية (عند البايكال) والتركمانية الرحلية من ساركيل ولكن اختلاط هذا الفخار بالفخار المحلي ضئيل لأن الاحتلال بقي لفترة قصيرة.

واختلط البتشينيغ مع بالخزريين في كل من مرحلتي تاريخهما الآسيوي حتى القرن التاسع والأوروبي في القرنين ٩ و ١٠م ولكي نحدد إلى أي وقت تعود الهياكل التي نقبنا عنها سنلقي نظرة على تاريخ البتشينيغ في القرن الأول للميلاد. لقد كانوا شعباً غفيراً استوطن في القسم الشرقي من كازاخستان الحالية وسمّوا في ذلك الوقت «كانغار» وبلادهم في المصادر الصينية دعيت كانغيوي (كانغ - يو - وي).

وقوض التجفاف القاسي للمنطقة السهبية الأوراسية في القرن ٣م جبروت كانغيوي، وفي القرن الثامن زالت عن خرائط «البلاد الغربية» الصينية. وفي عهد خاقانية كانغار التيوركية الأولى انحصروا في ذلك الوقت في شمال بحر أورال ولم يلعبوا أي دور سياسي ويجب الاعتقاد بأنهم وجدوا أنفسهم منضمين إلى الخاقانية الغربية وإن سقوط الخاقانية في عام ٦٥٩م أعاد لهم الحرية ولكن ليس القوة. وخاضوا الحرب مع التيورغيشيين في بداية القرن الثامن ومع الاويغور في نهاية القرن نفسه أيضاً ولكن من دون نجاح على ما يبدو. وفي هذا الوقت المأساوي لهم بدلوا الاسم وصاروا يسمون البتشينيغ مبقين على اللقب القديم كانغ - إرْ (أي الرجل الكانغي) لأشجع الشجعان وأعلى الأشراف (أشرف الأشراف). وفي نهاية القرن ٩م عبر البتشينيغ الفولغا وانتشروا عند البحر الأسود حيث عاشوا حتى القرن ١١م.

ويجب الافتراض أن رجلنا البتشينيغي قد وصل إلى الدلتا من الشرق وليس من الغرب وعن ذلك يتحدث شكل الركاب الذي ظهر في سيبيريا في زمن التاشيت وعثر عليه في قبور الكوردوغينسكيين. ومثل هذه الرِكابات عرفت في أوروبا الشرقية من القرن ٦ إلى ٨م لما استبدلوها بالركابات المسطحة الموطأ

(القاعدة) النصف بيضوية المشكلة من أسياخ جانبية وعروة عالية اللدونة للتعليق بمعزل عن الحزام ماسك السرج.

إن تشابه السرج المكتشف في القبر مع سروج التماثيل الصغيرة للفرسان الأتراك في تورفانا لا يسمح لنا بتوقيت القبر هذا في القرن ٧م ولكن شكل الركاب أيضاً يستبعد القرن الثامن ميلادي وهنا يقدم تحليل التاريخ السياسي النتيجة لأن الغُزّ والخزر قاتلا معاً ضد البتشينيغ في القرن التاسع ودفن البتشينيغي في مقبرة خزرية قليل الاحتمال. وبالمقابل هذا جائز تماماً في القرن السابع لما خَدَمَ البتشينيغ والخزر معاً في قوات الخانات الأتراك.

نلخص النتائج:

إن توضع قبور محاربي الخان التيوركي والنساء الخزريات والأطفال في مقابر متراصة بالتناوب في طبقة واحدة وبفواصل دقيقة بين القبور لا تقل عن ١.٥م ممكن الحدوث فقط في حالة إذا كانت القبور المجاورة ظاهرة (مرئية) أثناء الدفن، ومن البديهي إن كانت لها معالم خارجية واضحة في القرن السابع.

غير أن الأمر إذا كان على هذا النحو فإن ذلك يعني أن الرحل والخزر ما ماتوا فقط وإنما عاشوا على مقربة وفي وئام. وهذه النتيجة من الأبحاث الأثرية تؤكد آراء م. إ. ارتامونوف المبنية على تحليل المصادر المكتوبة وسير الأحداث. ونحن لا نثبت تغلغل الرحل ببساطة في دلتا الفولغا وحسب بل تعايشهم أيضاً مع السكان المحليين الحضريين وبالنسبة لإقرار وضع كهذا يصبح مفهوماً لماذا خرج الأتراك والخزر معاً لتحطيم الفرس ولماذا خلط المؤلفون البيزنطيون بينهم بالرغم إنهما كانا شعبين مختلفين ولكن دولتهم كانت واحدة. ولم تربط الخزر والبارسيل والتيورك والتيليتس وحدة العيش والطباع والعادات والثقافة أو اللغة وإنما وحدة المصير والاختلافات الاثنية (السلالية الإثنوسية - المترجم) لم تمنعهم أن يكونوا أصدقاء ومن وجهة النظر هذه صار مفهوماً لماذا وجدت سلالة آشين المحرومة من العرش والمطرودة إلى وطن الفرع الغربي ملجأ في خازاريا وحكمت هناك حتى بداية القرن التاسع عندما انتقلت السلطة من الخانات الأتراك إلى أيدي الملوك اليهود.

نتوقف باختصار عند تلك الظروف الجغرافية التي مهدت السبيل للوضع الخاص للخزر وجعلت منهم غير مشابهين للسهبيين المحيطين بهم.

لقد كونت دلتا الفولغا بتلالها البائيرووية الكثيرة العدد ومروجها الخضراء ومجاري مياهها النقية المطوقة بالصفصاف والقصب الوطن الأصلي للخزر. هذه الدلتا هي حقاً جزيرة خضراء في وسط السهوب التي تحيط بها وهكذا تصفها

وثيقة القرن ١٠م اليهودية - الخزرية «بلادنا لا تتلقى أمطاراً كثيرة وفيها الكثير من الأنهار التي تتكاثر فيها الأسماك كثيراً وعندنا فيها كثير من الينابيع، بلاد خصبة ومثمرة تتكون من حقول وكروم وبساتين وحدائق وجميعها تسقى من الأنهار... أنا أعيش في وسط جزيرة حقولي وكرومي وبساتيني وحدائقي تقع داخل جزيرة» وكلمة «جزيرة» استخدمت في مؤلفات القرون الوسطى العربية كذلك للأحراج وسط السهوب ولأي فسحة (أرض) محدودة وعلى ما يبدو استخدمت هنا للفكرة نفسها أيضاً. زد على ذلك لو أخذنا بالحسبان أن مستوى بحر قزوين في القرن الثاني الميلادي كان ناقص ٣٦م وفي القرون ٤-٦م ناقص ٣٢م يظهر أن مكان إقامة الخزر كان مساحة واسعة مغطاة الآن بالمياه. إن الظروف الطبيعية لدلتا التيريك والفولغا متشابهة ويمكننا الافتراض أن انتشار الخزر قد تم من القفقاس ولكن ليس عبر «الأرض السوداء» الجافة حيث لم تكشف آثارهم وإنما على امتداد الخط الشاطئي لبحر قزوين في ذلك الوقت.

وأكدت الأعمال الأثرية في عامي ١٩٦١-١٩٦٢م هذا الافتراض. وجميع الآثار الخزرية التي اكتشفناها تتجمع في القسم المركزي من الدلتا بين سومينيتس العريض والفولغا القديم. وكان القسم الجنوبي للدلتا المركزية الحالية هو الأكثر عمراناً وكان الفخار الخزري سواء المشوي (القرميدي) أو المشمس (الطري) يجد مثيلاً له في فخار القفقاس الشرقي ولكن البرهان الأهم يعتبر العثور على قرية خزرية منذ العهد الخزري الباكر على بعد ١٥كم من الشاطئ في أضحال ايغولنسكي. وفي هذا المكان لا يتجاوز عمق البحر الـ ١م ووجدنا في المجروفات أثناء تعميق المجرى الملاحي في المياه الضحلة فخاراً من النوع الطري دحرجته الأمواج وهو مماثل للفخار الخزري وعظام حيوانات والمنسوب المطلق للطبقة التي أخذت منها المجروفات هو ناقص ٢٩.٦ وبما أن القرية توضعت على أرض منبسطة. فعند وجود تبّات صغيرة جمعتها الريح بارتفاع ٢م يجب الأخذ بالحسبان أن مستوى بحر قزوين في زمن وجود هذه القرية يساوي ناقص ٣٢م مما يتوافق مع القرن ٦م.

وهكذا يقع القسم الأكبر من خازاريا القرون الوسطى حتى الآن تحت الماء والأصغر كان مغموراً في زمن طغيان البحر في القرنين ١٣-١٤م وفقط وجود تلال بائيرو ساعد على العثور على الآثار المادية الحضارية لـ «نيدرلاند قزوين» (قياساً على الأراضي المنخفضة في هولندا في خليج زويدر زو أي الأراضي المنخفضة القزوينية - المترجم).

إن القسم المركزي من الدلتا الجنوبية كان يجب أن يكون القسم الأكثر عمراناً من خازاريا، إن التلال السبعة عند مجرى نهر التابولا هي بالحرف الواحد مزروعة بالفخار الخزري أما تل باراني عند مجرى نهر البولدا (٤كم إلى الأعلى من توزوكلي) فيدعو للدهشة بغزارة المواد المدفونة فيه والمرفوعة منه ولم تسمح ظروف طريق الاستطلاع بتقصي هذا التل المهم بصورة متقنة وكنا قد جمعنا أكثر المواد تعبيراً ووضوحاً أما القبور فقد فتحت انتقائياً ومن على قمة التل جمع قدر من قِطع الفخار الطري ومن نوع عجينته تقرر أنه عتيق للغاية. وعلى سطح التل صودفت قطع من الفخار الرمادي الطري وكسرات من الفخار الغُزّي مشوية فقط من الجوانب وكسرات من سكاكين حديدية وصفيحات من البرونز وحلقة صغيرة واحدة من النحاس وقطعة من صفيحة قرميدية محنية قليلاً.

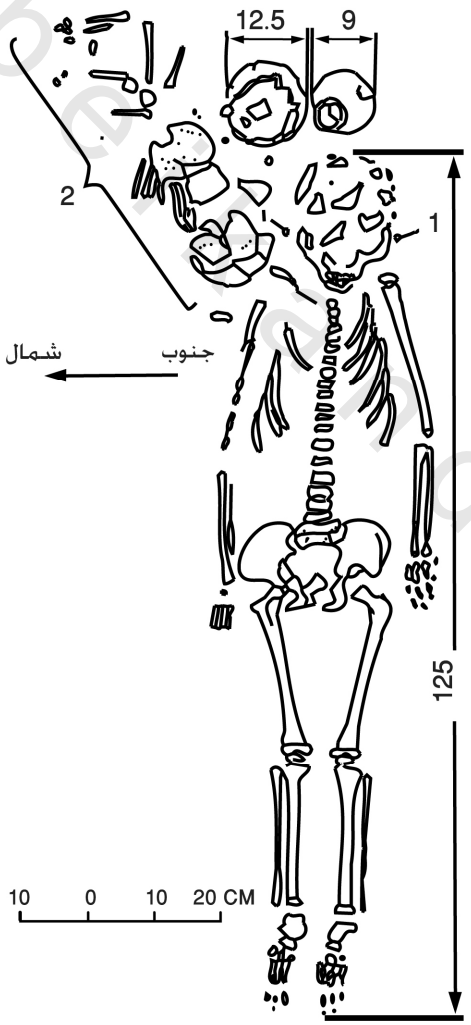

تل باراني- تنقيبات عام ١٩٦٢ م
قبر: ١- أقراط حلقية برونزية ٢- الرضيع.

واكتشف عند الحافة الجنوبية للقسم المركزي من التل قبر لطفل خزري مع قدرين أحدهما من الغضار الأسود الطري بسطح رمادي مع تاج (إطار الفتحة العلوية) مثني للخارج وجوانبه الخارجية مغطاة بأثلام أفقية وارتفاعه ١١.٥سم وقطره ١٢.٥سم وسماكة جداره ٠.٦سم والثاني - مسطح القعر أحمر قرميدي كمثري الشكل بقبضة مسطحة وعجينته مشوية جيداً وارتفاعه ١٢.٥سم وقطره الأكبر ١٠سم وسماكة جداره ٠.٥سم وعلى القسم الواسع منه حلقتان من الخطوط وعند قاعدة العنق واحدة وفوقها مرسوم زخرف بشكل فستونات والطفل (على ما يبدو بنت) كان

موضوعاً على الظهر والرأس إلى الشرق واليدان والرجلان ممدودتان والأوعية موضوعة خلف الرأس، ووجد تحت الجمجمة أقراط برونزية دائرية بقطر ١.٣سم ومن ناحية الرأس في المكان الذي تكون فيه عظام الكبش التضحية يرقد هيكل عظمي لرضيع وكانت جمجمة الرضيع المخربة من عند خطوط (دروز - المترجم) الالتحام موجودة عند عظام الكتف الأيمن للهيكل العظمي وجسمه موجه باتجاه الجنوب - الغربي. والهيكل العظمي للطفل الآخر بطول ١٠٠سم نُظّف (المقصود أزيلت طبقة الغضار الرملي المتصلبة على العظام والموجودات المرافقة للمدفون - المترجم) في مكانه في القسم الشمالي - الغربي للتل وكان يختلف بأن عظم الترقوة وأضلاع الجانب الأيسر من القفص الصدري كانت مختلطة وموجودة على الجمجمة ولم يكن معه أشياء بخلاف قطعة القرط البرونزي عند الصدغ الأيمن والقبر الثالث عند الطرف الجنوبي للتل هو أيضاً لطفل رضيع موجه باتجاه الغرب وطول الهيكل العظمي ٦٠سم رقد على الجنب الأيمن وبالقرب من الرأس إبرة /مسلة/ حديدية وعثر عند حقو (قطن) الهيكل العظمي على خشب بمثابة ترس أو بطانة.

وعلى هذا النحو رأينا أن طقس الدفن الخزري متماثل من حيث المبدأ ويتبدل في بعض الحالات ولذلك لا يزال أمام الدراسات المتواصلة للمقابر الخزرية القديمة آفاق واسعة.

ثم يجب التوقف أيضاً عند جملة من القبور الأبكر بكثير التي تعتبر دون شك مهمة لنا.

واكتشف أيضاً قبر آخر مثل هذا عند قمة التل الأميري على بعد ٥-٦كم (بخط مستقيم) إلى الشمال من تل ستيبان رازين.

الهيكل العظمي راقد على الظهر والرأس إلى الغرب على عمق ٢٠سم مطمور بغبار الريح ومن الجهة اليمنى للهيكل حاجب من التربة المتهايلة بعرض ٠.٤م وتحته فك سفلي لحصان وطبقة من تربة متفحمة وعلى بعد متر واحد إلى الجنوب الغربي من الجمجمة المحطمة اكتشفت قطع من وعاء متفحم وأسنان حصان وبين بقايا الوعاء وكتف الهيكل وجدت قطعة سكين حديدية ورماد مخلوط بالرمل استقر فيه عصعص خروف، وطقس الدفن مشابه للموصوف في تل ستيبان رازين.

وإلى الشمال من التل الأميري الكبير يقع التل الأميري الصغير الموازي له وعلى الحافة الشمالية للقسم المركزي من التل اكتشف قبر موجه للغرب وهو باقٍ بحالة جيدة بفضل طبقة ملاط الغضار الرملي التي وصلت فوق الجمجمة إلى ٧-١٠سم. وبرز منها إلى الخارج فقط فوهتا الوعاءين. ورقد الهيكل العظمي على الظهر مع يدين متصالبتين فوق البطن ورجلا الهيكل منحنيتان عند الركب والقدمين وعظام الكفين غير موجودة

ووجدت من ناحية الرأس عظام وجمجمة خروف وإلى الأعلى قليلاً قطعة من لوحة نحاسية رقيقة مثقبة ومسامير ومن حولها بقايا قشاط صغير. وفي مكان عظام اليد اليسرى - مرآه برونزية صغيره محفوظة جزئياً بقطر ٦.٨سم وسماكة ٠.٢سم وإلى الأسفل من عظام الحوض استقرت شظية سكين حديدية وأخرى كبيرة - عند الكتف الأيسر وهاتان الشظيتان هما لسكين واحدة بطول ١٢.٧سم وعرض ٠.٧سم وبحد واحد. ومن الواضح أن السكين كسرت أثناء الدفن وظهرت الشظايا في أماكن مختلفة. وعند الرأس وعاءان من الغضار الرمادي الطري بارتفاع ١٤.٥ وأقطار ١١ و ١١.٥سم والفوهتان مثنيتان للخارج وعلى أحدهما زخرفة محفورة. وكانت رجلا الهيكل العظمي مطمورتين أكثر من الرأس وسماكة (ارتفاع) الطمر ٢٥سم وعثر فوقها وعلى بعد ٤٠سم شمال الساق اليسرى للهيكل على قدر صغير مسطح القعر مهشم ومشابه للموصوفة أعلاه وعلى عظيمات (يمكن لطيور) لا شكلية. وعلاقة هذا القدر بالقبر غير واضحة.

والقبر الثاني على هذا التل نفسه ولكن أخفض من السابق وموجه كذلك للغرب والهيكل موضوع على الظهر واليدان والرجلان ممدودتان والقدمان غير موجودتين وعظام الكفين مختلطة بسبب انهيال غير كبير طمر الجسم وهو الذي أنقذه من الخراب ويجب الاعتقاد أنه بفضل هذا الانهيال نفسه ظهرت فُرَج كبيرة بين العظام الطويلة للهيكل وبقيت الجمجمة التي لمن يصبها الانهيال على السطح وكانت محطمة (ممعوسة) من الجهة اليمنى للجمجمة كان قدر صغير محطم من الغضار الأسود الطري ذو فتحة مثنية للخارج ومزين بزخرفة محفورة وكان إلى جانبه قطع لوعاء أحمر قرميدي مشوي جيداً ومحطم وفوق الرأس شظية سكين حديدية.

ووجد قبر مشابه للموصوف أعلاه ولكنه مخرب بشدة على قمة واحد من التلال التي يسمى مجموعها كورين.

ومن حيث المعالجة والشي وإلى حد ما شكل الأوعية يمكن اعتبار هذه القبور قبوراً سرماثية من القرن الثاني قبل الميلاد إلى القرن الثاني للميلاد وهذا لا يتعارض مع توجيه القبور للغرب، والوعاءان فيها الموضوعان عند رأس الميت يحدث (قد يوجد) توجيه آخر للموتى ولكمية الأوعية في المدافن السرماثية.

إلا أنه بحسب تناسب (أكثر تطاولاً بعض الشيء) الأوعية الموصوفة أعلاه تختلف هذه القبور عن القبور السرماثية أما توجيه الموتى نحو الغرب ووجود وعائين بالضبط في القبر موضوعين من ناحية الرأس فيقربها من القبور الخزرية في القرنين الثامن والتاسع الميلاديين.

إن الحدود الطبيعية لخازاريا من الشرق - الصحراء الرملية لغرب كازاخستان التي تقترب فيها الرمال الريحية عند قرية سِليترنويي إلى شاطئ نهر آختوب وإلى الأسفل بين تلال بائيرو المنحدرة تقع بحيرة مستطيلة - هي بقايا مجرى الفولغا والوادي الذي يرويه الأخير وإلى الشرق مجرى الكيغاتش الذي لم يجف - النهر الغني بالأسماك والمروج التي تحيط به مغطاة بالأعشاب الخضراء بحيث إن المنطقة الموصوفة يمكن أن تكون مكاناً ملائماً للاستيطان وفي الواقع اكتشف في منطقة بلدة كوردون غير بعيد عن السبخات الملحية ركام فخاري من القرون ٨-١٠م على تل ارتفاعه المطلق ناقص ١٨م وفي القرن التاسع كان هنا واحد من مجاري الدلتا وهذه اللقية ليست الوحيدة: ففي شبه الصحراء المتاخمة لسهل الدلتا بالقرب من المرتفعات الطينية عند الحد الطبيعي لـ آزاو يصادف في كل تبة قطع من الفخار ولو بكمية غير كبيرة ولهذا السبب يمكننا أن نستنتج أن استيطان هذه المنطقة كان كثيفاً

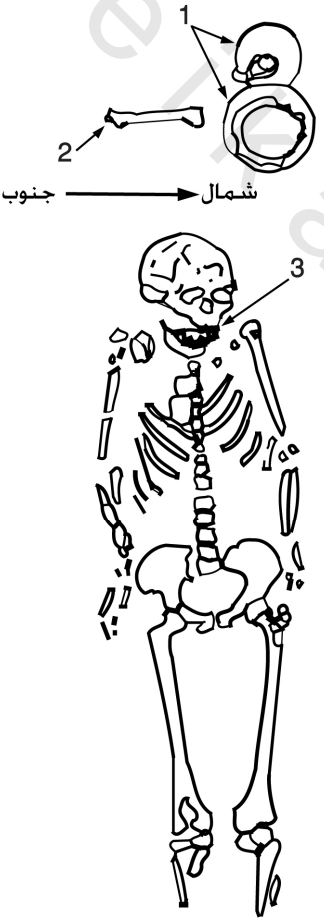

تل ستيبان رازين. تنقيبات عام ١٩٦١ م

قبر: ١- أوعية غضارية ٢- عظم الضحية ٣- بقايا خشبية.

نسبياً ولم يستوطن هذا السهب ليس الخزر أنفسهم وذلك لأن الفخار وفقاً لعجينته وطريقه شيّه يعود إلى الطراز التالي المنتشر من منطقة البايكال (كوريكان) إلى تركمانيا (الغُزّ) ويصادف في ساركيل حيث كون الحامية التي كانت فيها كما هو معروف من المرتزقة الرّحل.

ولكن لماذا تنازل الخزر هكذا بسهولة عن المراعي الممتازة للجيران ولو كانوا أصدقاء؟ وعن هذا تجيب الباليوغرافيا (علم الكتابة القديمة - المترجم) في القرون ٦-٩م لما توقف بحر قزوين عند المنسوب المطلق ناقص ٣٢م كانت المساحات الكبيرة التي اكتشف مغطاة بالنباتات ومن الواضح أن هذه المراتع سمحت للخزر بإطعام قطعانهم وبصيد السمك من المجاري والبحر عند الشاطئ.

وبغض النظر عن أن السهل المتاخم للبحر يمتد بعيداً إلى الشرق فهو لم يصلح كله مكاناً لاستيطان الخزر وفي منطقه أضحال جانيبيك تحول المرج الجاف الآن إلى شبه صحراء. وهنا استطاع الرحل الأصليون الغُزّ البتشينيغ فقط أن يجدوا لأنفسهم رزقاً، وهذه السهوب ملائمة للغاية للقطعان لأنه في الربيع والخريف يتغطى شبه الصحراء بنباتات وفيرة وإلى ذلك لا يوجد هناك بعوض ولا تقع نكبات وكوارث الوديان النهرية الواقعة في المناطق السهبية.

ويتعقد السؤال عن الحدود الشرقية لخازاريا بالأخص لأنه من أضحال شارونوفسكي الواقعة شرقي غانيوشكا يبدأ طريق القوافل المار عبر رمال الرين إلى الشمال ويمر الآن على امتداد طريق القوافل القديم طريق السيارات من غانيوشكا إلى سازدي القرية الكازاخية غير الكبيرة ثم إلى الشمال. وهناك آبار على الطريق واقعة في وهاد الحت اكتشف فيها ركام من قطع من الفخار من كل العهود والنماذج: السرماثية والتيوركية والتترية وكذلك شظايا صوانية ويؤدي طريق القوافل على ما يبدو إلى الأورال حيث هناك كثير من لقى مواد الفن الفارسي ومن الحكم بحسب الفخار المكتشف عمل الطريق حتى نشوء خازاريا الفولغا وزال بعدها. ويبقى من غير الواضح علاقة الخزر بهذا الطريق والتجارة التي مرت ملتفة حولها وسارت في الفولغا ومن المستبعد أن يكون هناك ما يدعو للاستيطان عبر الصحراء، في حين كان هناك طريق حرة إلى النهر ولكن إذا أخذنا بالحسبان توقف بحر قزوين عند المنسوب ناقص ٣٢م فمن أضحال شارونوفسكي إلى ما نغيشلاك كان عن طريق بري مباشر عليه معبر واحد غير كبير أعطى إمكانية تلافي إعادة التحميل والتيه في مجاري الدلتا حيث هناك الكثير من الأضحال والتيار فيها سريع.

ورسمت الحدود الغربية لخازاريا بصورة لا تقل حدة ويتبع للدلتا حالياً «إقليم السبخات السهبية» - بحيرات جميلة منزرعة وسط تلال بائيرو.

وتمتلئ هذه البحيرات أثناء فيضانات الفولغا. ولكن في القرن السادس عندما كان مستوى الفولغا أخفض لم تكن هناك بحيرات وإنما سهب تلي جاف أقفل (طوق) على خازاريا الغنية الخضراء وهذه الظروف الجغرافية على ما يبدو لعبت دوراً حاسماً في العلاقات بين الخزر وجيرانهم السهبيين مما انعكس على خصائص دفن أولئك وهؤلاء.

obeikandl.com